

من مشاكل التاريخ

## طبيعة الفتح الاسلامي

للأستاذ خليل جمعة الطوال

(تمه ما نشر في العدد الماضي)

يقول درمنهم في كتابه حياة محمد : « ... وكان محمد يفضل  
اهتداء رجل واحد إلى الله على جميع غنائم الدنيا »  
وهل في تاريخ الحروب والأديان وصية بلغت من السمو  
الإنساني مبلغ هذه الوصية التي أوصى بها النبي (صلى الله عليه وسلم)  
معاذ بن جبل الأنصاري حين سيره على رأس وفد إلى اليمن ،  
وقال له : « يسر ولا تسر ، وبشر ولا تنفر ، وإنك ستقدم على  
قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ، فقل شهادة أن  
لا إله إلا الله وحده لا شريك له »

تلك هي ضالة السلم المنشودة بمد أن تجرد قلبه من حب  
المال ، ومتاع الدنيا . وتلك هي الطريق إلى هذه الضالة : شهادة  
فلجت الشرك ، وإيمان زعزع الأصنام

الجنة هي ضالة السلم التي أخرجته إلى ربه مجاهداً للحصول  
عليها . الجنة التي لا تشرى بالصنوك ، والتي لا تنفع فيها الأموال .  
الجنة التي ليس في استطاعة بشر أن يلجها وإن غفر له جميع أهل  
الأرض ، إلا أن يكون مؤمناً بالله ، وبرسوله والأنبياء ، الجنة التي  
ليس للدر فيها أن يغفر لأخيه ، وأن يحمل ذنوبه وخطاياها ، إلا  
أن يغفر له الله وهو خير الناظرين

أسر المسلمون في غزوة بني المصطلق عبد الله بن أبي ، وحاول  
عمر بن الخطاب قتله ، فقال له الرسول (ص) : فكيف يا عمر إذا  
تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ...

ثم سمع ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي عزم ابن الخطاب ،  
فجاء النبي (ص) وقال له : بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي  
فما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فترني به فاما أحمل إليك رأسه  
فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني .  
وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى  
قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال له الرسول : إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته  
ما بقي ممناً

تلك هي روح الفتح الاسلامي السامية  
الله أكبر ! رجل يتقدم لقتل أبيه متطوعاً ، ليحمل رأسه  
ييده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لكي لا يكون عليه غصاصة  
في دينه ، إن هو رأى غيره يقتله ، فتحمله عزرة الجاهلية على  
الأخذ بثأره ، فيقتل مؤمناً بكافر ، ويدخل النار !

سبحانك رب ! أية قوة جمّات في رسالتك هذه ، حتى  
استطاعت أن تحول النفوس الضارية إلى شملة روحية سامية  
أضاءت الكون وقد كان ظلاماً حالماً !

أُبحسنُ النبي صلى الله عليه وسلم وترفق برجل طمن فيه ،  
وشنع عليه ، ويظل مع ذلك في الدنيا من يهيمه ، ويفترى عليه ..  
هذه هي روح الفتوح الاسلامية على عهد النبي صلى الله عليه  
وسلم التي لم يعرف التاريخ قط فتوحاً أرحم وأشرف وأعدل منها .  
وأما روح الفتوح الاسلامية الأخرى ، فحسبك دليلاً عليها هذه  
الوصية المثلى السامية التي أوصى بها الصديق قواده حين سيرهم  
لبث الدعوة إلى الاسلام : « لا نخونوا ، ولا نفلوا ، ولا نهدروا ،  
ولا نعتلوا ، ولا نقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ،  
ولا نوقدوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ،  
ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً ، إلا لما كلة  
وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعهم  
وما فرغوا أنفسهم له :

وسوف تقدمون على قوم : بأنوثكم بآنية فيها ألوان الطعام ،  
فاذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها  
لقد كان الفتح الاسلامي فتحاً روحياً مبيتاً ، خضعت له  
الجزيرة بأسرها دون أن تجري النساء فيها أنهاراً ، فتحاً دام تسع  
سنوات لم يقتل فيها إلا (٢٤٠) من الشركين و(٢٥٨) من  
المسلمين . فلا عجب إذا انصف بهذه الروحانية السامية ، لأن  
الروحانية كانت العامل الأكبر فيه . فمن أين جاء الجاحدون بهذه  
الفزوات الدامية التي امتلأت بها كتبهم ، وبجت بها حناجرهم ؟  
من أين جاؤوا بهذه المغنم والأرزاق والأسلاب التي أغرت  
المسلمين على التماذي في الغزو والنهب والسلب ؟  
إنه فتح كان الدين غاية ، ولولا الدين لكان له غير هذا الشأن

والمشقات . والحقيقة أن الصليبيين — عداء من كان في جيوشهم من اللصوص ، المجرمين — قد ظهروا للعالم كبرابرة مخيفين ، وقد أظهروا في آسيا صنفًا من الوحشية والفظائع لم تعدها قط هذه البلاد التي كان قد مر عليها أربعة قرون آمنة في ظل نظام عربي لم تر له من قبل مثيلاً

وقد افتتح الصليبيون القدس في ١٥ يولية ١٠٩٩ وقتلوا في اليوم نفسه عشرة آلاف من المسلمين التجأوا إلى جامع عمر ظناً منهم أنه يحميهم من وحشية أعدائهم ، ولم يكفهم هذا قط ، ولا نفع غليل نفوسهم المعطشى للدماء بل راحوا في الأسبوع نفسه يقتلون من المسلمين واليهود والمسيحيين (غير الكاثوليك) ما يناهز (٦٠) ألف نسمة

وكان خلفاء الصليبيين كأجدادهم فظاعة وعسفاً حتى لقد وصفهم بعض كتاب المسيحية رسفاً مؤلماً ، وقال أنهم ليسوا من المسيحية الفراء في شيء ..

وقال الأب ريموند داجيل : « لقد اشتد القتل في هيكل سليمان ، وكثرت فيه الجثث حتى أن الجند الذين قاموا بهذه المذبحة لم يمدد بانكأهم أن يطبقوا الرائحة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى » .

وقال روبرت ل موان : « لقد بدأت مذبحه للترك في ١٣ ديسمبر ولم يكف ذلك اليوم لقتل جميع الأسرى فأجهزنا على البقية في اليوم التالي » .

وقال ميشو : « تعصب للصليبيون في القدس تعصباً لم يسبق له مثيل حتى شكاه منه الكتاب النصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعلى البروج والبيوت ، ويشيدونهم طاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية ، وأعماق الأرض ، ويجرونهم في الساحات ويقتلونهم فوق جثث الأدميين . ودام التبرج في المسلمين أسبوعاً حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق . والغرب سبعمائة ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأوا إليه ، وأهلكوهم كلهم بالنار ... »

وجاء في تاريخ الأمير حيدر : « ... أخذ ريشارد قلب الأسد سبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل عكا ، برأى من عساكر صلاح الدين ، وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ، ظناً منهم أنهم ابتلعوا

كتب عدى بن أرطاة عامل المراق إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « إن للناس قد كثروا في الاسلام ، حتى خفت أن يقل الخراج » فكتب إليه عمر يقول : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكزن أنا وأنت حرائين نأكل من كسب أيدينا » أما والله لو أن حاكماً كتب إلى حكومة بلاده ، يصف لها قلة خراج ولايته ، لما تخرجت تلك الوزارة عن عزله ، ولا اجتمعت الأمة بأسرها تعالج تلك الأزمة الاقتصادية المخيفة ، ولكن الاسلام إنما جاء ليهدي القلوب ، لا ليزي الجيوب « فان الله إنما بث سخداً هادياً لا جانياً »

قال عمر بن عبد العزيز في خطبة له : « ووددت أن أغنياء المسلمين اجتمعوا فردوا على فقراءهم حتى نستري نحن وهم وأكون أنا أولهم » اه . ولستنا بحاجة إلى التعليق على هذه الجملة الموجزة وعلى ما تنطوي عليه من الكره لا للنزول والنهب والسلب فحسب ، بل لجميع متاع الدنيا

تلصق هي حجة الخصوم في حب الاسلام للنهب والنزول ، قد سقطت بين أيديهم ، عساسة ورق ، تتلاعب بها الرياح وأمواج الحقيقة ...

أما القول بأن العرب كانوا وسطاً في القتال فلا يدل إلا على جهل صاحبه بالفطرة العربية ، وبأخلاق سكان الصحارى الوحشة ، والبراري المغفرة ، التي يقوى فيها الذئب ، وتصول السباع . ومن شك في تبريز العرب وبصرهم بأحوال القتال ، فليستطرق ربوع الأندلس والهند وفارس وأفريقيا ، بل وفرنسا ، يوم كانت خيول مصر وخطان تسرح في شرق البلاد وغربها . وكان مجرد اسم العرب يوقع الرعب في قلوب الأعداء لما كان يبلغهم من أبناء فروستهم وبطولتهم ...

بقي أمر الحروب الصليبية ، وقول من قال إنها كانت حروب الإساءة والشهامة وأن الصليبيين كانوا عجباً بأنظمتهم وترتيباتهم . ولستنا نزيد في ديم هذا الكلام الفث على إيراد شهادات وأقوال بعض المستشرقين الكبار ، وذلك لتكون بعيدين عما يدفع الغير لانها بما بالتفرض والتحيز

يقول ديسون : « آن لنا أن نتناول الحروب الصليبية بالبحث تلك الحروب التي بذرت روح العداء بين الاسلام والمسيحية ... فلقد مشى فيها أقوام كان همهم السلب والنهب والسرقة والقتل ، وزاد في ذلك ما وجدوه في طريقهم إلى القدس من عشاء السفر

بممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراً ، مرمصة  
الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواسر العاصرة ، والمساجد  
الفخمة ، والجامعات المليئة المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ،  
وتخزين علومهم ، يشعان إشعاعاً باهراً . وظل طيلة : هذه القرون  
الثلاثة يرسل على الثرب النصراني نوراً ... »

ويقول هربرت جورج ويز « ساد الاسلام لأنه كان  
أفضل نظام اجتماعي وسياسي اتخذت عنه الأعصر ، وكان حينها  
حل يجد أمماً استولى عليها الدل والكسل ، وتفتشى فيها الظلم  
والسفس ؛ ويوجد حكومات متفسخة غاشمة ، مستأثرة مستبدة ،  
لا تربطها برطايها أية رابطة ، فهداً إلى البشرية يد المساعدة  
والانقاذ ... » .

وقال سيدبو « إن الاسلام هو الدين السامى الذى استطاع  
أن يسير في فتوحاته دون أن يترك وراءه أثراً للجور ، وكانت  
ترحب به جميع الأمم المغلوبة على أمرها لحكم الروم والفرس ... »  
أفيد هذه الشهادات الصريحة تقوم ضد الفتح الاسلامي  
حجة ، وينهض دليل ؟

هذه سورة من كتابنا « في الدفاع عن الاسلام » المائل  
للطبع ، وستقدم في الأعداد المقبلة بكلمة أخرى تصور فيها  
الحضارة الاسلامية الزاهرة ، ومبلغ ما وصلت إليه من التقدم  
والرق ، وما ذلك إلا نصرة للحق ، وخدمة للعالم ، والله خير  
الناصرين . سرق الأردن خليل بجمعة الطوال

شيئاً آمنها ، وحباً بالانتفاع بمرازم يتخذونها دواء يستشفون به .  
وجاء في التاريخ السام للانيس ورامبو : « . . . بلغت دماء  
السلمين التى سقكها الصليبيون في المسجد الأقصى حداً فظيماً  
بحيث كان الفارس منهم وهو راكب متصل إلى رجله دماء  
السلمين التى سقكت في ذلك الحرم المقدس ، وسانت كالسيل  
النهمر ... »

وكتب ريكولدوس حوالى عام ١٢٩٤ في مدح السلمين  
قائلاً : ومن ذا الذى لا يمجيب بحاستهم وخشوعهم في صلاتهم ،  
وبرحمتهم الفقير ويتقديسهم اسم الله والأنبياء والأما كن  
القدسة ، ويحسن ذنوبهم ، ولطفهم مع الثرب ؟  
ولله درغوستاف لوبون إذ يقول « كان يشمر ظاهر الصليبيين  
بأنهم يقصدون خدمة دينهم بالاستيلاء على القبر المقدس ، ولكن  
الواقع أنهم كانوا منحلين من جوهر الدين ، وأقرب إلى نزع شماده  
متى رأوا مغناً لهم ، أو قاحشة يأتونها

شهادات في الفتح والحضارة الاسلامية : -

جاء في مقالة : لعالم الذرنسي ليوتي - تقللاً عن الأصرام -  
« وإذ كان فريق من ذوى الأغراض الملتوية ، يزعم أن الاسلام -  
بفتوحه - يمث على التدمير والفوضى والتمصب ، فأنى بعد أن  
تميزت بين السلمين مدة من الزمن في الشرق والثرب ولم أكتف  
بما قرأته عن الاسلام في الكتب - أفوا ، إن جميع تلك المزاعم  
لا نصيب لها من الصحة : » . . .

وقال العالم الأمريكى لوئيز ستودارد ، في كتابه ( حاضر  
العالم الاسلامي ) : ما كان الثرب قط أمة تحب إراقة الدماء ،  
وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك  
أمة سوهوبة جليلة الأخلاق والمزايا ، توافقة إلى ارتشاف العلوم ،  
محسنة في اعتبار نم التهذيب ، تلك النعم التى انتشرت إليها ،  
من الحضارة السالفة ، وإذ شاع بين الثالبين والمغلوبين التزاورج  
ووحدة المتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً . وعن هذا  
الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، وهى جماع متجدد التهذيب  
اليونانى والرومانى والفارسى . وذلك المجموع هو الذى تقخ فيه  
للثرب روحاً جديداً ، فنصر وأزهر ، وألغوا بين عناصره ومواده  
بالمبقرية المربية والروح الاسلامي ، فأحد وتماسك بعضه ببعض .  
فأشرق وعلا علواً كبيراً ، وقد سارت الممالك الاسلامية ، في  
لقرون الثلاثة الأولى من تاريخها أحسن فكانت أكثر

## النص في الإسلام

### في الأدب والأخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين وتتمهما معاً أربعون  
قرشاً ، وهو يلب من المكاتب الشهيرة في ابلاد العربية

ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة